إثبات الاسم لله تعالى ونفي السميِّ والكفؤ والنِّد عنه

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٧٨]. وَقَوْلُهُ: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥]، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]. وَقَوْلُهُ: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: ١٦٥]).

(الشرح)

قوله: {تَبَارَكَ}: مأخوذ من مادة بَرَكَ، **والبَرَكة لها معنيان:**

المعنى الأول: اللزوم والثبوت، ومنه "البِركة" للماء المستقر في موضع واحد.

المعنى الثاني: النماء، والزيادة، وكثرة الخير.

ولفظ "تبارك" لا يجوز استعماله إلا في حق لله؛ لأنه يختص به تعالى، وقد ورد في القرآن العظيم في تسع آيات: أولها في الأعراف، وآخرها في سورة الملك، وهو يدل على التمجيد والتعظيم، والتطهير والتقديس، وهو وصفٌ ذاتي لله تعالى؛ فالله وحده الذي يتعالى ويعظم، ويكثر خيره وفضله ومَنُّه؛ فلهذا لا يعبر به في حق غير الله. لكن يقال في حق غير الله "مُبَارَك"، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} [مريم: ٣١]، وقد أطال ابن القيم –رحمه الله–الكلام على هذا اللفظ في كتابه (الفوائد)، وكتابه (جلاء الأفهام).

وقد توصف بعض الأماكن بالبركة كما قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٦]، فهو مبارك لما يقع فيه من العبادات وذكر الله تعالى، وتوصف بعض الأزمنة بالبركة؛ فشهر رمضان شهر مبارك؛ بما جعل الله فيه من الخير، وتوصف بعض الأطعمة بالبركة، كالعسل؛ فإن فيه شفاء للناس، والزيتون، والحبة السوداء، وماء زمزم؛ لما يحصل بها من الخير والشفاء؛ كما جاء في الحديث: (مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ)[١].

ولا يجوز إثبات بركة في شيءٍ من الأشياء إلا بدليل، وكل ما أثبت الله تعالى فيه بركة ومنفعة فإنّا نثبته؛ سواءٌ كان في الأشخاص، أو الأمكنة، أو الأزمنة، أو الأطعمة، أو الأشربة.

---

[١] أخرجه أحمد: رقم (١٤٨٤٩)، وحسنه ابن القيم في زاد المعاد: (٣٩٣/٤)، والحديث مختلف فيه بين الرفع والوقف، ولمزيد اطلاع انظر: تلخيص الحبير للحافظ ابن حجر: (٢٦٨/٢).

قال ابن القيم –رحمه الله–: (وأما البركة فكذلك نوعان أيضًا:

إحداهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة "على" تارة، وبأداة "في" تارة. والمفعول منها: مبارك. وهو ما جعل كذلك فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل؛ فهو سبحانه المبارِك، وعبده ورسوله المبارَك، كما المسيح، عليه السلام: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} [مريم: ٣١]؛ فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته "تبارك" فمختصة به تعالى، كما أطلقها على نفسه بقوله تعالى: {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]، {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: ١]، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤]، {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزخرف: ٨٥]، {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ} [الفرقان: ١٠]،{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [الفرقان: ٦١]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوهما. فجاء بناء "تبارك" على بناء "تعالى" الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها)[١].

قوله: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ}: دل ذلك على إثبات الأسماء لله تعالى، وفي هذا رد على الجهمية، الذين يقولون: ليس له اسم، وإنما اصطنع الناس له أسماء وأطلقوها عليه! ولا ريب أن هذا من أبطل الباطل، فقد قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [سورة الأعراف: ١٨٠] وقال: {فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠]، وقال: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [طه: ٨، الحشر: ٢٤].

وقد استهل الإمام عثمان بن سعيد الدارمي –رحمه الله–كتابه الجليل، في الرد على بشر المريسي، بعقد: (باب الإيمان بأسماء الله تعالى وأنها غير مخلوقة)، قال فيه: (ثُمّ اعْتَرَضَ الْمُعَارِضُ أَسْمَاءَ اللّهِ الْمُقَدّسَةَ فَذَهَبَ فِي تَأْوِيلِهَا مَذْهَبَ إِمَامِهِ الْمَرِيسِيّ. فَادّعَى أَنّ أَسْمَاءَ اللّهِ غَيْرَ اللّهِ، وَأَنّهَا مستعارة مخلوقة كَمَا أَن قَدْ يَكُونُ شَخْصٌ بِلَا اسْمٍ. فَتَسْمِيَتُهُ لَا تَزِيدُ فِي الشّخْصِ، وَلَا تَنْقُصُ، يَعْنِي أَنّ اللّهَ كَانَ مَجْهُولًا كَشَخْصٍ مَجْهُولٍ. لَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ. وَلَا يُدْرَى مَا هُوَ، حَتّى خَلَقَ الْخَلْقَ فَابْتَدَعُوا لَهُ أَسْمَاءً مِنْ مَخْلُوقِ كَلَامِهِمْ. فَأَعَارُوهَا إِيّاهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْرَفَ لَهُ اسْمٌ قَبْلَ الْخَلْقِ.

وَمَنِ ادّعَى هَذَا التّأْوِيلَ فَقَدْ نَسَبَ اللّهَ تَعَالَى إِلَى الْعَجْزِ وَالْوَهَنِ وَالضّرُورَةِ٤ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْخَلْقِ؛ لِأَنّ الْمُسْتَعِيرَ مُحْتَاجٌ مُضْطَرٌّ، وَالْمُعِيرُ أَبَدًا أَعْلَى مِنْهُ وَأَغْنَى. فَفِي هَذِهِ الدّعْوَى اسْتِجْهَالُ الْخَالِقِ. إِذْ كَانَ

---

[١] بدائع الفوائد: (٢/ ١٨٥).

بزَعْمه هَمْلًا لَا يُدْرَى مَا اسْمُهُ وَمَا هُوَ وَمَا صِفَتُهُ٥ وَاللَّهُ الْمُتَعَالِي عَنْ هَذَا الْوَصْف الْمُنَزَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنّ أَسْمَاءَ اللّه هِيَ تَحْقِيقُ صِفَاته. سَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: عَبَدْتُ اللّهَ أَوْ عَبَدْتُ الرّحْمَنَ، أَوِ الرّحِيمَ، أَوِ الْمَلِكَ الْعَزِيزَ الْحَكِيمَ، وَسَوَاءٌ عَلَى الرّجُلِ قَالَ: كَفَرْتُ بِاللّه، أَوْ قَالَ: كفرت بالرحمن الرّحيم، أَو بالخالق الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: عَبْدُ اللّه، أَوْ عَبْدُ الرّحْمَنِ، أَوْ عَبْدُ الْعَزِيزِ، أَوْ عَبْدُ الْمَجِيدِ، وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: يَا الله يا رحمن، أَو يا رحيم، أَو يام مَلِكُ يَا عَزِيزُ يَا جَبّارُ بِأَيّ اسْمٍ دَعَوْتَهُ مِنْ هَذِه الْأَسْمَاءِ، أَوْ أَضَفْتَهُ إِلَيْه، فَإِنّمَا تَدْعُو اللّهَ نَفْسَهُ، مَنْ شَكّ فِيه فَقَدْ كَفَرَ. وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: رَبّي اللّهُ أَوْ رَبّيَ الرّحْمَنُ كَمَا قَالَ اللّهُ تَعَالَى: {وَرَبُّنَا الرّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}، وَقَالَ اللّهُ تَعَالَى: {سَبّحَ لِلّه مَا فِي السّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}، وَقَالَ: {وَسَبّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، كَذَلِكَ قَالَ فِي الاسْمِ: {سَبّحِ اسْمَ رَبّكَ الأَعْلَى} كَمَا يُسَبّحُ اللّهَ، وَلَوْ كَانَ مَخْلُوقًا مُسْتَعَارًا غَيْرَ اللّه لَمْ يَأْمُرِ اللّهُ أَنْ يُسَبّحَ مَخْلُوقٌ غَيْرَهُ. وَقَالَ: {لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبّحُ لَهُ مَا فِي السّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}، ثُمّ ذَكَرَ الْآلِهَةَ الّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّه بِأَسْمَائِهَا الْمُسْتَعَارَةِ الْمَخْلُوقَةِ، فَقَالَ {إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْمَاءٌ سَمّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ}، وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ لِقَوْمِه حِينَ قَالُوا: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}، فَقَالَ لَهُمْ يَنْهَاهُمْ: {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ}، يَعْنِي أَنّ أَسْمَاءَ اللّه تَعَالَى لَمْ تَزَلْ، كَمَا لَمْ يَزَلِ اللّهُ، وَأَنّهَا بِخِلَافِ هَذِه الْأَسْمَاءِ الْمَخْلُوقَةِ الّتِي أَعَارُوهَا لِلْأَصْنَامِ وَالْآلِهَةِ الّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِه)[1].

قوله: {ذِي الْجَلَالِ}: وصفٌ للاسم المجرور "ربّ"، لأن صفة المجرور مجرور، و"ذو": بمعنى صاحب، والجلال: العظمة والفخامة؛ فهو سبحانه ذو الجلال: أي أنه سبحانه مُتصف بصفات الجلال، كما أن أولياءه يُجلونه، وهم المؤمنون.

قوله: {وَالإِكْرَامِ}: صاحب الإكرام، لأنه سبحانه متصف بالصفات الكريمة، كما أنه سبحانه يُكرم أولياءه ويكرمونه.

قوله: {فَاعْبُدْهُ}: أمر للنبي، صلى الله عليه وسلم، وأمته من بعده، بالعبادة، والعبادة لها تعريفان:

- تعريف باعتبار حقيقتها: كمال المحبة مع كمال الخُضوع، وهذا تعريف باعتبار المُتعبَد له، مأخوذة لغة من قولهم: بعير مُعبد، أي مذلل للركوب عليه، وطريق مُعبد: يعني مُوطأ مُسهل للمشي.

- وتعريف باعتبار آحادها وأفرادها: وقد عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-بقوله: (هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلّ مَا يُحِبّهُ اللّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَة وَالظّاهِرَة. فَالصّلَاةُ وَالزّكَاةُ وَالصّيَامُ وَالْحَجّ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ؛ وَبِرّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّهْيُ عَنْ

[1] نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد: (١/ ١٥٨-١٦٠).

الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَانُ إلَى الْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْقِرَاءَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ. وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ. وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ؛ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ)[1]؛ وهذا تعريف باعتبار المتعبَد به.

قوله: {وَاصْطَبِرْ}: أصلها واصبر، فزيدت فيها التاء فصارت واصتبر، ثم قُلبت التاء طاء، والزيادة في المبني زيادة في المعنى: بمعنى اصبر صبرًا كثيرًا، وقد تقدم الكلام عن معنى الصبر وأنواعه، والعبادة تفتقر إلى صبر، وتحتاج إلى مصابرة؛ حتى يثبت الإنسان عليها، والمؤمن إذا وطن نفسه على العبادة، وعودها عليها، اعتادت وانقادت، ولم يجد كُلفة ومشقة، بل تُصبح مُحبة للعبادة، حتى إنها إذا فقدتها شقيت واستوحشت؛ فينبغي للمؤمن أن يُوطن نفسه منذ الصغر على عبادة الله؛ من الفرائض والنوافل، لكي يألفها ويأنس بها؛ فإن الخير عادة.

وقد استدرك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-على من سمى الأوامر الشرعية التكاليف، وقرر أصلًا عظيمًا، فقال: (أَنَّ نَفْسَ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَعِبَادَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَإِجْلَالَهُ هُوَ غِذَاءُ الْإِنْسَانِ، وَقُوتُهُ، وَصَلَاحُهُ، وَقِوَامُهُ، كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَكَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ؛ لَا كَمَا يَقُولُ مَنْ يَعْتَقِدُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ: أَنَّ عِبَادَتَهُ تَكْلِيفٌ وَمَشَقَّةٌ. وَخِلَافُ مَقْصُودِ الْقَلْبِ لِمُجَرَّدِ الِامْتِحَانِ وَالِاخْتِبَارِ؛ أَوْ لِأَجْلِ التَّعْوِيضِ بِالْأُجْرَةِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا هُوَ عَلَى خِلَافِ هَوَى النَّفْسِ - وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يَأْجُرُ الْعَبْدَ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمَأْمُورِ بِهَا مَعَ الْمَشَقَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ} الْآيَةَ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ: {أَجْرُكِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ}. فَلَيْسَ ذَلِكَ هُوَ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ، وَإِنَّمَا وَقَعَ ضِمْنًا وَتَبَعًا ...، وَلِهَذَا لَمْ يَجِئْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ إطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَنَّهُ تَكْلِيفٌ كَمَا يُطْلِقُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَفَقِّهَةِ؛ وَإِنَّمَا جَاءَ ذِكْرُ التَّكْلِيفِ فِي مَوْضِعِ النَّفْيِ؛ كَقَوْلِهِ: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا}،{لَا تُكَلَّفُ إلَّا نَفْسَكَ}،{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا مَا آتَاهَا} أَيْ وَإِنْ وَقَعَ فِي الْأَمْرِ تَكْلِيفٌ؛ فَلَا يُكَلَّفُ إلَّا قَدْرَ الْوُسْعِ، لَا أَنَّهُ يُسَمِّي جَمِيعَ الشَّرِيعَةِ تَكْلِيفًا، مَعَ أَنَّ غَالِبَهَا قُرَّةُ الْعُيُونِ وَسُرُورُ الْقُلُوبِ؛ وَلَذَّاتُ الْأَرْوَاحِ وَكَمَالُ النَّعِيمِ، وَذَلِكَ لِإِرَادَةِ وَجْهِ اللَّهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ، وَذِكْرِهِ وَتَوَجُّهِ الْوَجْهِ إلَيْهِ، فَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي تَطْمَئِنُّ إلَيْهِ الْقُلُوبُ، وَلَا يَقُومُ غَيْرُهُ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ أَبَدًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا})[2].

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩-١٥٠).

[2] مجموع الفتاوى (١/٢٥-٢٦).

قوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}: استفهام يُراد به النفي؛ لأن جوابه: لا أعلم له سميًا، والسميُّ هو المسامي، أي: مُماثلًا له في الاسم، فلا سمي له سبحانه، وقد دلت الآية على إثبات الاسم لله تعالى.

قوله: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}: أي لا مُكافئ له سُبحانه، و"أَحَدٌ" نكرة في سياق النهي فدلت على العموم.

قوله: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا}: جمع ند، والند هو المثيل والنظير؛ نهى الله أن يجعلوا له أندادًا، لأنه لا يُمكن أن يكون له ند يُماثله ويُناظره، تعالى الله عن ذلك.

قوله: {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}: يعني وأنتم تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وجعل الأرض فراشًا، والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً، كما في الآيتين قبلها؛ فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد العبادة.

قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ}: نعى الله تعالى على طائفة من المُشركين اتخاذهم الأنداد من دون الله؛ يبذلون لها من العبوديات ما لا يجوز صرفه لغير الله تعالى؛ ومن ذلك المحبة، فإن المحبة من أعظم مقامات العبادة، بل إنها أُم العبادات القلبية، فإن المحرِّك والباعث للإنسان لعبادة الله انجذابه إليه وتألهه له، والتأله: مأخوذ من الوله، وهو المحبة والشوق والانجذاب إلى المعبود؛ فمن صرف محبة السر لغير الله، فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله.

وللمُفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أن المشركين يُحبون أندادهم المحبة التي لا تنبغي إلا لله.

القول الثاني: أنهم يُحبون أندادهم كما يُحبون الله. بمعنى أنهم يُشركون في المحبة.

وهذا الثاني هو الراجح، وهو الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم-رحمهما الله-، بمعنى أن المشركين ليسوا خليين من محبة الله، بل يُحبون الله! لكنهم يُفسدون هذه المحبة بإشراك غير الله بها؛ فلم يُوحدوا الله بالمحبة.

قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ}: المؤمنون يوحدون الله في المحبة؛ فلهذا عبر بصيغة أفعل التفضيل، {أَشَدُّ}، فلا يُشركون مع الله غيره في محبة السر، التي هي محبة العبادة، وإن كان يُحبون محبوبات أُخرى من المحاب الطبيعية البشرية الغريزية؛ كمحبة الطعام والشراب، والزوج، والولد، والوالد، وغير ذلك، لكن هذه لا تُسمى محبة عبادة.

قال ابن الجوزي: (وفي قوله: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ قولان: أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبي العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء. والثاني: يحبونهم كمحبتهم لله، أي: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى في المحبة. هذا اختيار الزجاج، قال: والقول الأول ليس بشيء، والدليل على نقضه قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ}، قال المفسرون: أشد حباً لله من أهل الأوثان لأوثانهم)[١].

والأثر المسلكي لإثبات الاسم لله، ونفي السمي، والكفؤ، والند عنه، تحقيق التوحيد في عبادة الله، وجمعية القلب عليه، ودعاؤه بما سمى به نفسه من الأسماء الحسنى التي تفرد بها، والتعبد بمعانيها في القلب والسلوك.

[١] زاد المسير في علم التفسير: (١/ ١٣٠).

نفي الولد والشريك عن الله تعالى وتحريم القول عليه بغير علم

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

({وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: ١١١]، {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: ١]. {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ١، ٢]. {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون: ٩١، ٩٢]. {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٧٤]، {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]).

(الشرح)

قوله: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ}: الحمد لغةً: وصف الله بصفات الكمال، ونُعوت الجلال، فإذا تكرر الحمد صار ثناءً، واصطلاحًا: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بوصفه منعمًا على الحامد، والألف واللام فيه للاستغراق؛ فجميع المحامد مستحقة لله.

قوله: {الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}: رد على من ادعى الولد لله، وهم طوائف:

- اليهود حين قالت: {عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: ٣٠].
- النصارى حين قالت: {الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: ٣٠].
- مشركو العرب حين قالوا: {وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات: ١٥٢ – ١٥٨]، وقال: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا}

[الإسراء: ٤٠]، وقال: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [الزخرف: ١٩]؛ زعموا أن الله اتخذ صاحبةً من الجن فولدت له الملائكة! تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وسبب تنزه الرب عن الولد يرجع إلى أمرين:

- أحدهما: أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده، وهذا يُنافي وحدانية الله تعالى.

- الثاني: أن الولد إنما يُتخذ للإعانة والمساعدة، والله غني عن ذلك.

فلئن كان الولد في حق المخلوقين كمالًا فهو في حق الخالق نقص؛ لكمال وحدانيته.

قوله: {وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}: لا استقلالًا، ولا مُشاركة، ولا معاونةً؛ كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢].

قوله: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ}: الولي من الوَلْي، وهو: الدنو والقُرب، والمقصود: المعاون والنصير.

قوله: {مِّنَ الذُّلِّ}: يعني بسبب الذُل، فالله سبحانه وتعالى لا يستكثر بعباده من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة.

قوله: {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}: أي قل: الله أكبر الله أكبر؛ بلسانك، وعظمه بقلبك وفعالك. فالله تعالى أكبر من كل شيء، سبحانه وبحمده؛ فدلت الآية على وحدانية الله ﷻ، وكمال تفرده في ذاته، وملكه، وأفعاله.

قوله: {يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: التسبيح: التنزيه، فمعنى سبحان الله: أي تنزيهًا لله، والله تعالى يُنزه عن ثلاثة أُمور: النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين؛ فكل ما في السماوات، وكل ما في الأرض يُسبح بحمده، كما قال: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: ٤٤].

قوله: {لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: يعني له الملك كله، وله الحمد كله، وقدرته شاملة لكل شيء.

قوله: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ}: تقدم معنى "تبارك"، والفرقان: اسم من أسماء القرآن، لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والكُفار.

قوله: {عَلَى عَبْدِهِ}: محمد ﷺ ، وهذا يدل على أن مقام العُبودية شريف، فإن الله وصف نبيه ﷺبالعبودية، في أشرف المقامات؛ فقال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: ١]، {تَبَارَكَ الَّذِي

نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١]، {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [الجن: ١٩] وهكذا؛ فمن ادعى سقوط العبودية عنه لبلوغه "اليقين" فهو كافر زنديق.

قوله: {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}: قال ابن الجوزي، رحمه الله: ("لِيَكُونَ" فيه قولان:

أحدهما: أنه كناية عن عبده، قاله الجمهور. والثاني: عن القرآن، حكاه الماوردي)[1]، والراجح أن ذلك مجموع الأمرين، كما جمع بينهما في قوله: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} [البينة: ١ - ٣].

ودعوة النبي، صلى الله عليه وسلم، للناس جميعًا؛ إنسهم وجنهم، برهم وفاجرهم، كتابيهم ووثنيهم؛ قال الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]، والنذارة: الإعلام بالأمر المخوف، والمراد بها هنا: المعاد.

قوله: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}: تقدم بيانها، وقد كان من صنوف المشركين في الربوبية:

- الثنوية من المجوس، الذين يزعمون أن للكون خالقين: إله النور (يَزدان)، يخلق الخير، وإله الظُلمة (أَهرَمَن)، يخلق الشر.

- القائلون بتعدد الآلهة، وهم الرومان؛ فيجعلون لكل مِرفق من مرافق الحياة إلهًا؛ إله الحرب، وإله الحصاد، وإله الحب، الخ.

قوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}: "كل" من ألفاظ العموم، وفي هذا رد على القدرية والمعتزلة، الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه، وقد قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، وقال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]؛ فهو خالقهم وخالق أفعالهم، وإن كانت أفعالهم كسبًا لهم.

قوله: {فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}: منذ الأزل، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: (كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)[2].

---

[1] زاد المسير في علم التفسير: (٣/ ٣١١).

[2] أخرجه مسلم: رقم (٢٦٥٣).

قوله: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ}: "ما" نافية، و "مِن" تدل على الاستغراق والاستقصاء؛ فيتناول النفي أي صورة من صور الاستيلاد.

قوله: {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}: حاشا وكلا أن يكون مع الله إله (ما)، و(من)، كسابقتيهما؛ قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢].

قوله: {إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}: يعني لو قُدر، وحاشا وكلا أن يكون؛ وفي هذا دليل عقلي على امتناع الشريك مع الله؛ فلو كان معه إله، جدلًا، لاستقل كل إله بمُلكه، ولنشأ بينهما ما ينشأ بين الملوك من المغالبة، والذي نجده أن الكون مُتسق، مُنتظم؛ ليس فيه ممالك متنافرة ولا اضطراب، مما يدل على عدم وجود مُنازعة ومُغالبة؛ فهذا دليل على وحدانية الله في ربوبيته.

والمتكلمون يُثبتون هذه القضية بما يُسمونه (دليل التمانع)، وهو دليل عقلي، لا بأس به، ويقررونه على النحو التالي: لو قُدر أن للكون خالقين فأراد أحدهما أن يُحرك شيئًا، وأراد الآخر أن يُسكنه، **فثمَّ ثلاثة احتمالات**:

الأول: أن يقع مُراد كل منهما.

الثاني: ألا يقع مُراد أي منهما.

الثالث: أن يقع مُراد أحدهما، ولا يقع مراد الآخر.

فأما الاحتمال الأول فهو مُمتنع، مُستحيل ببداهة العقول، لأنه جمع بين النقيضين، والثاني ممتنع مستحيل أيضًا، لأنه رفع للنقيضين، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، كما يدل على عجز كل منهما بعدم وقوع مُراده، وذلك لا ينبغي لإله! فما بقي إلا الاحتمال الأخير: وهو أن يقع مُراد أحدهما، ولا يقع مُراد الآخر؛ فيكون من وقع مُراده هو المُستحق للعبادة دون الآخر.

قوله: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}: تنزيهًا له عن دعوى الشرك.

قوله: {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} والغيب: ما غاب عن أعين الناس، والشهادة: ما شاهدوه؛ فعلمه شامل لكل شيء.

قوله: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}: أي لا يُمثل الله بخلقه، ولا يُقاس بهم، والأقيسة ثلاثة: قياس التمثيل، وقياس الشمول، وقياس الأَوْلَى. وقد تقدم بيانها عند قول المصنف في أول الكتاب: (ولا يقاس بخلقه).

قوله: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ}: "إنما" أداة حصر، والتحريم لغةً المنع، واصطلاحًا: ما نهى عنه الشارع على وجه الإلزام بالترك.

قوله: {الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}: الفواحش جمع فاحشة، وهي ما عظُم خُبثه واستقباحه.

قوله: {وَالإِثْمَ}: الإثم هنا: هو ما يجترحه الإنسان بذاته، غير مُتعد لغيره.

قوله: {وَالْبَغْيَ}: هو ما حصل به تجن وعدوان على غيره، وهذا معناهما عند الاقتران، وأما عند الافتراق فيشمل أحدهما الآخر.

قوله: {بِغَيْرِ الْحَقِّ}: وصف طردي؛ فإن كل بَغي فهو بغير حق.

قوله: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ}: هذا موضع الشاهد، وهو النهي عن الشرك، وتسوية غير الله تعالى به سُبحانه.

قوله: {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}: وصفٌ طردي، فإن أشرك مع الله تعالى فلا سُلطان له به، ولا دليل عليه، ولا بُرهان له.

قوله: {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}: القول على الله، عز وجل، بغير علم من أعظم المحرمات، بل إنه ختم المحرمات به لأنه أعظمها، لأنه يشمل ما سواه، فكان من باب الترقي في التحريم، ومن قال على الله، عز وجل، في أسمائه وصفاته نفياً وإثباتاً، بغير دليل، فهو داخل في هذه الآية؛ كمن نفى الأسماء والصفات، أو أثبت الأسماء ونفى الصفات، أو أوّل الصفات على معنى لا دليل عليه؛ فقل كما قال الله تعالى، ورسوله، ولا تتجاوز القرآن والحديث؛ تسلم وتغنم.

والأثر المسلكي للعلم بانتفاء الشريك عن الله في الملك، ونفي الولد عنه، توحيده سبحانه بالربوبية والألوهية، وعدم التفات القلب إلى سواه، والتوقي من القول عليه بغير علم.